

## معالجة الخطابات في ضوء المنجز التداولي- كتاب البيان والتبيين أنموذجا-

Addressing speeches in light of the pragmatic achievement - the book of statement and indication as an example

الدكتورة: حاج علي خديجة

البريد الإلكتروني: khadidja0608@gmail.com

جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم - الجزائر

## الملخص :

يروم موضوع مقالتنا إلى إبراز حضور التداولية- كمفهوم ومنهج لساني غربي- في المدونة العربية من خلال تصفح كتاب "البيان والتبيين" لصاحبه الجاحظ، فقد حاولنا الوقوف عند مفهوم التداولية، ثم قمنا برصد بعض المفاهيم التداولية الحاضرة في أقوال الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، على غرار: الاهتمام بالخطاب، طريقة أداء المخاطب، إضافة إلى طريقة تلقي المخاطب، مبدأ "لكل مقام مقال"، سياق الحال، وزد على ذلك أن اللغة تستعمل لأغراض ومآرب ولإشباع حاجات معينة... وغيرها من المسائل الرائدة في التفكير التداولي اليوم.

الكلمات المفتاحية: التداولية، المدونة العربية، البيان والتبيين، الجاحظ، الخطاب، السياق، المقاربة.

## Summary :

The subject of our article aims to highlight the presence of pragmatics - as a Western linguistic concept and method - in the Arabic blog by browsing the book "The Statement and the indication" of its author ALDJAHIZ, we have tried to stand at the concept of pragmatics, Then we monitored some of the pragmatics concepts present in Al-Jahiz's sayings in his book the statement and indication, such as: Attention to discourse, the performance of the speaker.

In addition to the way in which the addressee is received, the principle of "each situation has certain article" is the context of the case. Moreover, the language is used for purposes and to satisfy certain needs ... and other leading issues in pragmatic thinking today.

**Key words:** pragmatics, Arabic blog, statement and indication, Al-Jahiz, discourse, context, approach.

## 1.مقدمة:

حوت مؤلفات علماء التراث كالخليل وابن جني وسيبويه والجرجاني والجاحظ -على سبيل المثال لا الحصر- نظرة شمولية ثاقبة في دراسة اللغة وتحليلها، لكن الوصف التجزيئي الضيق لبعض الباحثين المحدثين أثناء قراءتهم للتراث العربي، وحصرتهم للجهد الفكري التراثية خلال دراستهم لنظامها اللغوي في الجانب القاعدي للغة فقط، واهمالهم للجانب الوظيفي الاستعمالي فيها، قد وجه الدرس اللساني العربي إلى مسارات- لا يمكن أن يتكئ عليها الباحث أثناء اطلاعه على المدونة العربية-لم تتسم بالدقة في المعالجة وطرح التصورات؛ حيث تبلورت القضايا المطروحة حول طبيعة اللغة ومست المحتوى المعرفي فقط وطعننا أحيانا في قواعده.

وحق تتضح الرؤية أكثر ينبغي أن نشير إلى أن علماء التراث درسوا اللغة من منطلق أنها أداة للتواصل تكمن وظيفتها الأساسية في التبليغ والتخاطب بين المتخاطبين، كما أشادوا بضرورة الجمع بين دراسة النظام

اللغوي الداخلي والخارجي (السياق) معاً، لتقوم اللغة بوظيفتها التواصلية على أكمل وجه، لأن المتكلم ينتج اللغة ليعبر بها عن أغراضه ومقاصده، لا ليجعلها جامدة حبيسة المعاجم والقواميس فقط. وفي ذات السياق تعد التداولية من بين النظريات اللسانية الحديثة الأكثر استقطاباً من قبل الباحثين والدارسين المحدثين - في الآونة الأخيرة-؛ حيث غيرت نظرتهم التقليدية اتجاه دراسة اللغة، بعدما كانت حبيسة آراء النظرية البنيوية الشكلية لعقود من الزمن، كما دعا التداوليون إلى ضرورة إعادة تفحص ما طرحته الدراسات الشكلية والتوجه نحو المنهج التداولي ليمدهم برؤى متعدّدة، نتيجة لقصور الدراسات الشكلية، وإهمالها لمقاربة اللغة في تجليها الحقيقي، أي في الاستعمال<sup>(1)</sup> وذلك نظراً لتعدد اهتماماتها، المتمثلة في دراسة وتحليل الملفوظ بمكوناته: المتكلم والمتلقي، الخطاب، السياق، الوسيلة، الطريقة... الخ أثناء عملية التواصل.

وجاءت مقالتنا لتسليط الضوء على الاتجاه التداولي، وكشف معالم حضوره في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، انطلاقاً من جملة الإشكاليات المطروحة، منها: ما مفهوم التداولية في الدراسات الغربية؟ وهل هناك حضور للتفكير التداولي في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ؟ وإذا فرضنا حضوره، فأين تكمن ملامحه من خلال أقواله؟

قبل أن نشتغل في الإجابة على التساؤلات التي طرحناها، لا بد أن نشير إلى أن هناك جهود معتبرة لبعض الباحثين العرب المحدثين كأحمد المتوكل<sup>(2)</sup> وطه عبد الرحمن<sup>(3)</sup> ... وغيرهم -ممن أشاروا إلى أن دراسة البنية اللغوية في الفكر اللغوي العربي القديم تنطلق من الفهم الوظيفي- قد مهدولنا الطريق للغور أكثر في سبر هذه القضايا، فهم قد بحثوا في الفكر التراثي العربي بالمنهج الحديثة عن المفاهيم والمنهج المتخذة من قبل الرعيل الأول من النحاة واللغويين في كيفية دراساتهم للسان البشري، وقد حددوا طريقتهم الاستعمالية المتبعة في جمع اللغة، كما استخلصوا ما يتوافق والنظريات اللسانية الغربية المعاصرة في تحليل اللغة.

فعمليات البحث العلمي التي قاموا بها أسفرت عن وجود دراسات متعددة للظاهرة اللغوية، وكل دراسة ركزت على جانب معين، وآخر ما توصل إليه البحث اللساني هو دراسة اللغة في سياقها التواصلية الاجتماعية، وهذه الحقيقة يجب أن لا يغفلها كل من يروم الخوض في دراسة المدونة العربية.

كما أنه لا يخفى على أحد أن تراثنا العربي يزخر «بأعمال قيمة تضعه في مصاف الفكر العالمي الخالد، وتجعل منه معيناً يستلهم منه الباحثون ما يعينهم على معالجة إشكالات لسانية متعدد، وإقامة نظريات وتحاليل جديدة تفي برصد الظواهر اللغوية وتفسيرها»<sup>(4)</sup>. فمن خلال تصفحنا للدراسات اللغوية العربية سنلمس عدة زوايا من زوايا الطرح من ناحية المفاهيم والمصطلحات، التصورات والنظريات والمنهج، ويتميز كل طرح معرفي بفرادته وقيّمته الكبيرة.

وهذا ما أشار إليه صبحي الصالح حينما قال: «ولنا بعد هذا الاحتراز أن نعود إلى بحوث أسلافنا لنستقي منها "أصول الألسنية" في كل موطن لم ينحصروا فيه ولم يحصروا بسببه أحدًا في نطاق علم أفنوا فيه حياتهم وطبقوا مناهجه الخاصة أو حُيِّل إليهم أن في وسعهم تطبيقها وتعميمها على المنهج اللغوي العام. وحينئذٍ سنفاجأ بأطراف الآراء وأدقّ التعريفات التي أوضح نفر منهم عن طريقها طائفة غير يسيرة من الجوانب المميزة

للغة في طبيعتها الصوتية التي هي مادتها الطبيعية، وفي وظيفتها الاجتماعية التي تنقل الأفكار وتصوّر التعبيرات»<sup>(5)</sup>، فالأمر يتطلب منا-إذن- الوقوف وقفة تأملية عند الأفكار التي عرضها القدماء في مؤلفاتهم من الاهتمام بالخطاب، طريقة أداء المخاطب، إضافة إلى طريقة تلقي المخاطب، مبدأ "لكل مقام مقال"، زد على ذلك أن اللغة تستعمل لأغراض ومآرب ولإشباع حاجات معينة... وغيرها من المسائل الرائدة في التفكير اللساني الغربي اليوم، والتي تعرضت لها الدراسات اللغوية العربية.

وإن أوضح مثال تدللي على ذلك -كما قلنا من قبل- مؤلفاتهم وما تحتويها من نظرة شمولية ثاقبة في دراسة اللغة وتحليلها ف«اللغويين الأوائل أمثال الخليل وسيبويه وابن جني، على سبيل المثال لا الحصر، قد حللوا اللغة من منطلقات علمية بالإمكان اعتبارها متطورة جدا بالنسبة لعصرهم. مما يبين لنا أن المفاهيم الألسنية المتطورة ليست دخيلة على التراث اللغوي العربي. فالمطلوب الآن هو إعادة النظر مجددا في طرائق التحليل اللغوي العربي، على ضوء التطور العلمي الحاصل في مجال الألسنية الحديثة، والسعي إلى إيجاد ألسنية عربية تغدو قادرة على تفهم قضايانا اللغوية»<sup>(6)</sup>.

لأننا من خلال تحليلنا لكيفية تناول بعض القدامى للقضايا اللغوية سنجد أن طريقتهم استعمالية وظيفية قائمة على السماع واستقراء كلام العرب واستنباط الأحكام وخير مثال على ذلك وما ذكره السيوطي في كتابه (الاقتراح في أصول النحو) «إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه»<sup>(7)</sup>، هذه الأمثلة وغيرها تظهر قيمة الوظيفية أثناء الاستعمال في تحديد طرق أداء اللغة عند بعض اللغويين القدامى.

انطلاقا من هذا الطرح اخترنا استعراض جانبا من المدونة العربية ممثلة في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، الذي يعد أحد العقول التاريخية التي كان لها الفضل في بناء الصرح اللغوي العربي القديم، ثم سنحتفي ببيان امتداد التفكير التداولي عنده من خلال ما اهتدى إليه من حقائق معرفية.

## 2. مفهوم التداولية:

أ/ لغة:

يرجع مصطلح التداولية إلى الجذع اللغوي (د.ول) ويعرفها الزمخشري بقوله: «دول، دالت له الدولة، ودالت له الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان عدوهم: جعل الكره لهم عليه، والله يداول الأيام لبن الناس مرة لهم ومرة عليهم...»<sup>(8)</sup>.

ب/ اصطلاحا:

التداولية هي دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله<sup>(9)</sup> من خلال دراسة اللغة المستعملة في إنجاز الفعل الكلامي.

بينما يعرفها طه عبد الرحمن بأنها «وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم»<sup>(10)</sup>، فالتداولية تهتم بدراسة التواصل بشكل عام بدءا من ظروف إنتاج الخطاب ومقصدية المتكلم ودوره في إنتاج الخطاب، وصولا إلى التأثيرات في المستمع، وعناصر السياق وغيرها.

لقد تجاوز الاتجاه التداولي الدراسة الشكلية للغة لأنه «مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب كرسالة تواصلية واضحة وناجح»<sup>(11)</sup>، كما يعالج العلاقة بين اللغة (حال الاستعمال) وأبعادها الخارجية الاجتماعية والمقامية التي ينتج في خضمها الخطاب، وهذا يدل على أنه يركز على الجانب التواصلي بكل عناصره أثناء بناء القول الذي يتطلب ألفاظا وعبارات واضحة المقصدية لبلوغ تواصل سليم.

### 3. ملامح التفكير التداولي في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ:

من بين قضايا التفكير التداولي قضية الحجاج، التي نجد ملامحها تتجلى عند الجاحظ من خلال تعريفه للبيان حيث يقول: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير؛ حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنما هو: الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضح عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»<sup>(12)</sup>. يتبين لنا أن الجاحظ من خلال إبانته عن المعاني، قد أفصح عن عناصر العملية التواصلية: المتكلم، والمتلقي والرسالة والوسيلة (فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضح عن المعنى)، والشفرة (كشف قناع المعنى وهتك الحجاب)، كما اختزل العلاقة التواصلية بين المتكلم والسامع في مصطلح "البيان".

وأكد لنا أن لبلوغ حالة الفهم والإفهام ينبغي أن تتجاوز اللغة البعد التواصلي القائم على مبدأ الإبانة والإيضاح إلى البعد الإقناعي القائم على مبدأ التأثير والتأثر في المخاطبين واستمالتهم من خلال الاستشهاد بشيء «من قرآن أو حديث أو شعر أو مثل أو خبر مروى بهدف إثباته أو انكاره أو الاحتجاج له أو بطلانه أو نحو ذلك»<sup>(13)</sup>، وهذا الإجراء العملي يتطلب من المتكلم «معرفة سابقة بالشاهد المقصود، وقدرة على تصوره ودراية بوجود أثره في مجال التداول»<sup>(14)</sup> لتتم عملية الإفهام على أكمل وجه.

وفي هذا الصدد نشير إلى ما ذكره ضافر الشهري من أن الغاية القصوى عند الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" هي الخطاب الإقناعي الشفوي وهو إقناع تقدم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال<sup>(15)</sup>، فللخطاب الحجاجي الإقناعي أغراض تتجلى في تقوية وتدعيم النتيجة للتأثير في المتلقي وتغيير سلوكه.

وبناء على ذلك، يتبادر إلى ذهننا أن المتلقي يمثل عند الجاحظ عنصراً أساسياً في تكوين الخطاب، لذلك كان يدعو المتكلم - دائماً - إلى مراعاة حاله أثناء إنتاج الكلام، كما نبّه في مواطن كثيرة إلى أنّ الإمداد يكون على حسب الاستعداد من قبل المتلقي، حيث قال: «إذا لم يكن المستمعُ أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائلُ في منطقه، وكان النقصان الداخلي على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه»<sup>(16)</sup>.

وثمة أمر آخر يجب أن لا نسقطه من بالنا، ونحن نتعامل مع هذا النص للجاحظ، وهو الدور الفعال للمتكلم في العملية التواصلية، فلم يقتصر اهتمامه بالمتلقي فقط، بل أشاد بأفضلية المتكلم، في مواطن كثيرة، منها قوله: «إن المفهم لك والمفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المفهم وكذلك المعلم والمتعلم، وهكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة»<sup>(17)</sup>.

كما حدّد شروطاً للمتكلّم البليغ، جسدها في قوله: «ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظُ معناه؛ وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وَفْقاً، ولذلك القدرِ لِفُقاً، وَخَرَجَ من سماجة الاستكراه، وسَلِمَ من فساد التكلف، كان قميناً بِحُسْنِ الموقع، وبانتفاع المستمع»<sup>(18)</sup>. لقد وضع الجاحظ معايير لإنتاج الخطاب المنطوق البليغ، وجعل مناط الإقناع البلاغي في كيفية التبليغ، ومدى تحقق قوة التأثير لدى المتلقي، فالخطاب البليغ في نظره يتطلب اختيار الألفاظ الواضحة الدالة على المعنى المراد إيصاله لشرائح الناس (طبقة العامة أو الخاصة) على اختلاف مستوياتهم، ولهذا ينبغي أن يضع المتكلم اللفظ والمعنى عند القوم الذين يألفونه، ويراعي الأحوال المحيطة بالحدث الكلامي أثناء تحديد محتوى الخطاب، لأن المعنى الدلالي لا يتضح لدى المتلقي من الكلام مباشرة فقط، وإنما لكل مقام مقاله الخاص به.

وفي ذات السياق، ركز الجاحظ في نصوص كثيرة على ضرورة التزام المتكلم بثلاث منازل فقال: «... فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيqa عذبا، وفخما سهلا ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء، ولا تجفوا عن الأكفاء، فأنت البليغ التام»<sup>(19)</sup>. وعليه فإن الجاحظ قد سعى جاهداً إلى الوقوف على خصائص الكلام البليغ، حيث رسم حدود ومعالم الكلام المؤثر الذي يشدّ الانتباه ويبلّغ الرسالة في أبهى صورة.

ولتوضيح ذلك نشير إلى أن الجاحظ وظف لفظي "البيان والتبيين" للدلالة على بلاغة التعبير بلغة الكلام التي تسهم في إدراك الحقائق بشكل جليّ، ويظهر لنا ذلك - أكثر - من خلال تحديده لمدار البلاغة، حيث يقول: «... وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة ولا المملوك بكلام السوقة (...).»<sup>(20)</sup>. نلاحظ من خلال النص أن الجاحظ يشدّد على ضرورة الانسجام بين الألفاظ والمعاني في الخطاب، من خلال اختيار الألفاظ المناسبة التي تتجاوز حدود الفهم إلى الإفهام.

أما إذا أردنا تفحص أهم النصوص التي تأكّد أهميّة سياق الحال في بناء الكلام المنطوق، وفهم دلالاته عند الجاحظ، فعلينا أولاً أن نشير إلى ماهية السياق، ثم نتقصى من نصوص الجاحظ مثال تدليلي يبيّن لنا تفضله لأهمية هذا العنصر سواءً في تبليغ المعنى المقصود من طرف المتكلم، أو فهم المعاني الضمنية الخفية من قبل السامع.

فالسّياق يشمل كل الظروف والملابسات الخارجية المتعلقة بنص الكلام الثقافية منها، والفكرية، والاجتماعية والحضارية... الخ، وهو «يضم المتكلم والسامع أو السامعين والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث الواردة في الماضي والحاضر ثم التراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات والخزعات...»<sup>(21)</sup>، لذلك ينبغي الاهتمام بالحيثيات التي ينتج في خضمها النص الكلامي، لأنها تسهل على كل من السامع والمتكلم فهم الخطاب وبالتالي استمرارية عملية التواصل بينهما.

وهنا لابد من بيان أن الجاحظ لم يستخدم مصطلح السياق في نصوصه، ولكنه استخدم ألفاظ تكرر ذكرها، وهي قريبة من المصطلح -وتؤدي نفس وظيفة لفظة "السياق"-، منها: المقام والموضع والحال، والأقدار... الخ، وعبر عن مفهومه الاصطلاحي بقوله: "لكل مقام مقال" و"مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

ونستشف ممّا تقدم ذكره أنّ للجاحظ معرفة واسعة بالدور الذي يلعبه سياق الحال في الكلام المنجز، والمتمثل في تأدية أغراض ومقاصد معينة، وقد أشار إليه في نصوص كثيرة في كتبه منها، قوله: «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبعا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا ولا مشتركا، ولا مضمنا، ويكون مع ذلك ذاكرة لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه موقفا، ولهول تلك المقامات معاودا. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم...»<sup>(22)</sup>، يبدو لنا بوضوح من خلال النص أن الجاحظ من بين علماء العرب القدامى أمثال: ابن جني، السكاكي... وغيرهم من الأجلء الذين أسهموا في الكشف عن دور المرجعيات الخارجية وسياق الحال في بناء النص، والتأثير في السامع واستمالاته.

وقد أشار في مواضع كثيرة للمقام بشرح مستفيض، وأعطاه أهمية بالغة، وجعله العنصر الثالث المسؤول عن تكوين المعنى أثناء نسج النص -بعد اللفظ والمعنى، حيث يقول: «فإن وجدت أن اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقيها من أماكنها المقسومة لها... وكانت قلقة في مكانها نافرة في موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها... لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة»<sup>(23)</sup>، نلتمس من خلال هذا النص والنصوص الأخرى -على سبيل المثال- قوله: «وإنما مدارُ الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقامٍ من المقال.»<sup>(24)</sup>، دعوة من الجاحظ للمتكلم إلى ضرورة التقيد بالتطابق بين المقام والمقال والحال أثناء عملية نسج الكلام، لأن عملية فهم النص وتأويل معانيه تكون بتجاوز المعطى اللغوي إلى المقام الذي أنتج فيه.

إن القصد -كما نعلم- هو المحدد لطبيعة الفعل، ولطريقة صياغة الكلام، وهذا يعني أن طريقة صياغة المتكلم لنصه (بوصفه علامات لغوية) ومعناه، وتحديد نوع الحجج هما من يبينان مقصده من الخطاب الذي شكله. وما ذكرناه آنفا ندرجه ضمن جزئية من مجموع مقصدية الجاحظ، لأن القصد عنده كان المركز في بيانه، بل كان يرى في أحيان كثيرة أن القصد يتجاوز المعنى إلى طريقة إثباته وتقديره، لذلك كان يدعو المتكلم إلى ضرورة احترام القصد والغاية من الكلام.

والجدير بالذكر أن الجاحظ استخدم كثيرا من السلم الحجاجية في نصوصه للإبانة عن أفكاره وآراءه وتوضيحها، مثال على ذلك، قوله: «وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها»<sup>(25)</sup>، من خلال القول يتضح لنا أن الجاحظ يرى أن إحياء المعاني يتطلب التدرج في استعمال الحجج من الحجة الضعيفة (ذكرها ثم الإفصاح عنها) وصولا إلى أقوى الحجج (استعمالها).

زد على ذلك، فكتاب "البيان والتبيين" يعج بالأدوات الحجاجية، كإذن، لأنّ، لهذا، بل، حتى... الخ، مثلا في سياق حديثه عن المعاني، نلاحظ أنّه أدرج الأداة الحجاجية "لأنّ" ليعلل ويبرر النتائج التي توصل إليها، من خلال قوله: «... ثم اعلم، حفظك الله، أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأنّ المعاني مبسّطة إلى غير غاية، ومعتمدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة»<sup>(26)</sup>، فقد ذكر أولا النتيجة: حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، واستعان بالأداة الحجاجية "لأنّ" ليعلل النتيجة، ويذكر الجحة المتمثلة في: المعاني مبسّطة والألفاظ محدودة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أيضا هو أن للأفعال اللغوية الانجازية كالنهي والأمر والاستفهام... وغيرها، نصيبا كبيرا من الاستعمال في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، على سبيل المثال قوله: «من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟»<sup>(27)</sup>، يعد الاستفهام نوع من أنواع الأفعال الحجاجية التي ينبغي مستعملها التأثير في المتلقي، وقد استعان بها الجاحظ ليوضح النتيجة الضمنية، والمتمثلة في قدرة الله عز وجل.

ونشير في هذا المقام إلى ما ذكره محمد الصغير بناني من أهمية العلاقات اللسانية التي تجمع بين المخاطب والمخاطب-التي أشار إليها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"- في نقل البيان إلى بلاغة والكلام إلى رسالة بكل ما تتضمنه من معاهد ورموز وحال ومقام<sup>(28)</sup>.

حاولنا من خلال استعراضنا لبعض أقوال الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، أن نبين مواطن حضور التفكير التداولي في كتابه، ونشير في الأخير إلى ضرورة الرجوع إلى الأعمال الفكرية المتعلقة بالجوانب المميزة للغة التي أفنى فيها أسلافنا حياتهم (كعلم الأصوات، علم التراكيب، النحو والصرف، البلاغة...)، لكي نبين حضور التفكير التداولي فيها، وإن لم تكن معروفة عندهم بهذا المصطلح التنظيري، إلا أنها كانت عبارة عن أعمال متناثرة هنا وهناك أثناء تحليلهم للمادة اللغوية وتبليغها.

وهنا يمكننا أن نقول أن «المعرفة التراثية معرفة خادمة لغيرها، وأنها معرفة عملية (استعمالية) تنبني على مبدأ الإجرائية وتمارس تقويم السلوك وتنقل مضامينها إلى حيز التطبيق»<sup>(29)</sup>. وهذا يحيلنا إلى إثبات فكرة "نضج الطرح الفكري لدى علماءنا"، ويبيّن لنا إلى حد بعيد مدى تداخل الدرس اللساني الحديث بتراثنا الفكري اللغوي، وبالتالي يمكننا القول بأن الدراسات التراثية العربية اتسمت بممارسة « المنهج التداولي قبل أن يضع صيته بصفته فلسفة وعلمًا، رؤية واتجاهًا أمريكيًا وأوروبيًا »<sup>(30)</sup>.

#### 4. الخاتمة:

توصلنا من خلال البحث إلى النتائج التالية:

أن الوعي بأهمية البحث في المدونة التراثية العربية قد تطور مؤخرا؛ حيث انصرفت أذهان الباحثين اللغويين العرب المحدثين، وتزايد الإقبال على دراسة وتصفح النصوص العربية القديمة، وبرز الاهتمام بتطبيق المناهج اللسانية الغربية على مؤلفاتهم الفكرية، فأسفر عن ذلك تولد تصورات فكرية جديد متمثلة في: وجود دراسات متعددة للظاهرة اللغوية في مؤلفاتهم، حيث ركزت كل دراسة على جانب معين، وهذا ما لمسناه من خلال تتبع أقوال الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين": فقد وضع أن تحديد المعنى وتوضيحه يتم

انطلاقاً من العناصر اللغوية وغير اللغوية، كما أعطى للشبكة العلائقية التي ينتظمها النص الحظ الأوفر خلال إنتاجه لنصوصه.

وهذا يحيلنا إلى القول بأن ملامح التفكير التداولي في كتاب "البيان والتبيين" ظهرت باستفاضة في طرحه لعدة قضايا من بينها: بيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه، والإلمام بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ، وكما لامسنا من خلال نصوصه دعوة إلى سياق الحال في تعليل العديد من المعاني الدلالية، بالإضافة لرسم معالم المقام وبيان أهمية مطابقته للواقع من عدمه، وبهذه الكيفية في الطرح والمعالجة يكون الجاحظ قد أرسى دعائم نظرية التواصل التي خصّ أطرافها بالوصف والتحليل مبينا ما لكل طرف من خصوصية في عملية التواصل، ووفق تلك الرؤية يمكننا القول بأن كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، ميّزته بعض السمات التي هي من أهم مبادئ التداولية الحديثة.

## 5. الهوامش:

- (1) ينظر: الشهري بن ظافر، استراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، مارس 2004م، ص: 29-30.
- (2) في أعماله الوظيفية المشهورة منها: آفاق جديدة في النحو الوظيفي، منشورات كلية الآداب، 1993م- الوظيفة والبنية مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، منشورات عكاظ، 1993م- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، 1995م- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989م... وغيرها من المنشورات التي اتسمت بالرؤية المنهجية والنظرة الوظيفية الموحدة للموروث العربي.
- (3) في كتبه المشهورة "تجديد المنهج في دراسة التراث"، "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"... وغيرها من الكتب فقد استند إلى كل من الفلسفة والمنطق واللسانيات في دراسة التراث العربي. ويرى أن اللسانيات تتكون من ثلاثة مجالات:
- 1/ الداليات: تتمثل في العلوم الثلاثة: الصوتيات، الصرفيات والتركيبات، والتي تعنى بدراسة الدال الطبيعي فقط.
- 2/ الداليات: قصد بها كل الدراسات التي تعنى بعلاقة الدوال بمدلولاتها.
- 3/ التداوليات: تشمل كل الدراسات التي تعنى بعلاقة الدوال الطبيعية بمدلولاتها مع الدالين: كمقاصد المتكلم، أغراض الكلام، وقواعد التخاطب.
- (4) عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي مقارنة لسانية تداولية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 2012م، ص: 7.
- (5) صبحي الصالح، أصول الألسنية عند النحاة العرب، مقال بمجلة الألسنية أحدث العلوم الإنسانية، ص: 64.
- (6) ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 140هـ-1986م، ص: 5.
- (7) السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص: 116.
- (8) الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1419-1998م، ج1، ص: 303.
- (9) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص: 31.
- (10) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص: 244.
- (11) مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار طليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، تموز (يوليو) 2005م، ص: 5.
- (12) الجاحظ، البيان والتبيين، تح: درويش بن جودي، 2008م، مج1، ص: 56.
- (13) البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص: 86.
- (14) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م، الرباط (المغرب)، ص: 111.
- (15) ينظر: استراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص: 449.
- (16) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع السابق، ص: 215.
- (17) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص ص 11-12.



- (18) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:07.
- (19) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:136.
- (20) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:65.
- (21) تمام حسان، اللغة معناها ومبناها، عالم الكتب للنشر والطباعة والتوزيع، ط4، 2004م، ص:352.
- (22) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع السابق، ص:93.
- (23) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:136، 138.
- (24) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:129.
- (25) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:56.
- (26) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:56.
- (27) الجاحظ، البيان والتبيين، المرجع نفسه، ص:60.
- (28) ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، 2001م، ص:21.
- (29) تجديد المنهج في تقويم التراث، المرجع السابق، ص:87.
- (30) محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد28، العدد3، مارس2000م، ص:30-31.